

«فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال ما رأيت كالיום»، هذه جملة تعقب الأولى كنتيجة لها حيث أن الصعلكة قادت صاحبها إلى أفعال التصعلك وأهمها الإغارة.

والتساؤل الذي يتولد عن هذه الجملة هو حول هذه (المرأة الجميلة)، وعن موقعها في الجملة وفي النص. إذ كيف حضرت الجميلة هنا.. وهل كان بشر يعرف بوجودها قبل أن يهاجم الركب... أي هل كانت الإغارة من أجل هذه الجميلة أم أنه أغار أولاً ثم اكتشف وجود هذه الحسناء؟

وحينما ظهرت الجميلة هل يا تراه قد رفع سيفه عن رقاب جماعة الركب أم أنه أفناهم واستخلص الجميلة واستبقاها لنفسه؟

ثم كيف حصل الزواج؟ وهل كان الزواج صفقة سلام بينه وبين الركب فتركهم وتركوا له الجميلة؟

تقوم الجملة على فضاء دلالي عائم، ومن هذا الفضاء الدلالي تتغير حياة بشر بن عوانة من صعلوك حرّ طليق إلى عاشق متولّ. وصار الصعلوك مجنوناً.

لقد وقع في (الجنون) من حيث أراد الحياة. فهذه الجميلة تتسلح ضده بسلاح اللغة وتجاربه بنص داخل النص الأصيل، فتقول قصيدة من داخل هذه المقامة، وتحرف بها وجهه باتجاه (فاطمة) الأجل والأحلى. ويستولي سلطان الشعر على بشر فيطلق المرأة الجميلة، ويسعى نحو الأجل، ولكنه يصاب بالجنون حسب ما يقول رجال الحيّ الذين طلبوا من عمّ بشر قائلين: كفّ عنا مجنونك. وذلك بعدما كثرت مضراته فيهم انتقاماً منه لحرمان عمه له من فاطمة.